الحاج عطية

يسير من شارع إلى آخر داخل هذه المدينة الصغيرة، وهو يحمل بين جنبيه ثقل الحياة وهمومها، في زمن مضى كان يربح من هذه الحرفة الكثير، أيام إن كانت محلات المدينة معدودة على أصابع اليد الواحدة، ينادي بصوت أجش أتعبه النداء ..

ـ جرد عربي من أجود الجرود.

ـ يدخل سوق الظلام وهو ينادي، لم يلتفت إليه أحد الشباب قال في سخرية وتهكم:

ـ موضة قديمة يا حاج.

يشعر بالحزن والغضب، يقترب منه مواطن يمد له الجرد يتفحصه يبادره متسائلًا:

ـ كم أعطي هذا الجرد الأبيض يا حاج؟

ـ سبعة جنيهات فقط.

ـ وهاذين ثمانية جنيهات مني.

ـ يفتح الله يفتح الله.

يهمس بينه وبين نفسه:

ـ هل تريدني أن أبيعك إياه بخسارة هذا لن يكون، يأخذ منه الجرد يواصل سيره وسط جلبة السوق وأبواق السيارات الحادة، وتكالب الناس على المحلات، شمس الظهيرة حارقة، يجر قدميه في تثاقل، لا أحد يخلصه من هذا الجرد، يشرد بذهنه مع العام الدراسي ومتطلباته الكثيرة لديه تسع بنات وثلاثة أولاد كلهم طلاب في المدارس، لا أحد منهم يدخل إلى البيت قرشًا واحدًا، أنفقت عمري عليهم في التعب والكد حتى غزت التجاعيد وجهي، وأكلتني السنون وابنتي عزيزة المسكينة دخلت العقد الثالث من عمرها، لم أترك فقيهًا إلا وعرضتها عليه، يقولون مرة إن بها سحر وأخرى يقولون معها مس يعطونها الرقية، ويشربونها جالونات المياه التي تتقيأها، يقولون خرج السحر منها، لكن لا تلبث بضعة أيام حتى تبدأ في الشكوى من جديد، لم يتقدم عريس إليها، ما ذنبها حتى تبقى عانسًا هكذا؟

فجأة يعبر الحاج عطية الشارع، دون أن يلتفت إلى سيارة الأجرة المسرعة، تقترب منه صوت يصرخ فيه:

ـ انتبه يا رجل انتبه.

صبي يهرول نحو السيارة التي اصطكت فراملها، وأحدثت صوتًا مزعجًا وهو يهتف: حادثة حادثة.

يزدحم الشارع بالناس، يتعطل السير المارة يتجمعون حول السيارة وهم يتدافعون، كل واحد منهم يريد أن يشاهد الضحية وهم يتساءلون: هل مات الرجل؟

الرجل المسن ينفض ملابسه من التراب وهو يتفصد عرقًا، بعد دقائق انفض المشهد نهض الحاج عطية، والعرق يتفصد منه السائق يمد له الجرد الذي قد اتسخ من التراب، وهو يعتذر له أجابه الحاج عطية:

ـ الذنب ليس ذنبك يا بني، ولكن قدر الله ولطف.

خاطب شاب زميله قائلًا:

ـ لقد نجا الشيخ بأعجوبة.